ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

المحتوى التاريخي للنقوش الصخرية في الصحراء الجزائرية

د. بعيطيش عبد الحميد

أستاذ مساعد التاريخ القديم
قسم العلوم الإنسانية
جامعة الحاج لخضر- الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

يحاول هذا البحث الإلمام بالعديد من الجوانب المتعلقة بمنهجية وتصنيفات النقوش الصخرية بأنواعها في الصحراء الجزائرية، استعرض من خلاله طبيعة النقوش والمشاهد الصخرية وأهميتها في تدوين وتأريخ ما تحويه المنطقة من الأشكال الآدمية والحيوانية، والموضوعات المرتبطة بالحياة اليومية لإنسان المنطقة في العصور القديمة، وكذلك البحث في الموضوعات المتعلقة بالتصنيف الأشكال الهندسية، والزّخرفية، والنّباتية، والتّحليل الكمّي لهذه المشاهد والنقوش الصخرية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١١ يوليو ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٢٠ أكتوبر ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

النقوش الصخرية - طاسيلي - الهقار- الفترة النيوليتية- الصحراء الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بعيطيش عبد الحميد. "المحتوى التاريخي للنقوش الصخرية في الصحراء الجزائرية".- دورية كان التاريخية.- العدد الثلاثون؛ ديسمبر ٢٠١٥. ص ٧١ – ٧٨.

مُقَدِّمَة

لا يمكن كتابة تاريخ الشعوب القديمة وحضاراتها إلا من خلال تكامل معطيات مختلف أنواع المصادر المكتوبة منها والأثرية، ويظهر جليًا للمهتم بتاريخ المغرب القديم وحضارته، أن المصادر الأثرية التي اعتمدتها غالبية الدراسات والأبحاث في مختلف اللّقى الأثرية التي عثر عليها في الجزائر، وهي تكتسي أهمية بالغة في كتابة تاريخ المنطقة. تُعَدّ النقوش الصخرية في الصحراء الجزائرية البدايات الأولى للنواة الحضارية الدالة على الاستقرار فيه، وعليه فقد أعطينا المنطقة كل الاهتمام، ذلك لأنها تمثل خلفية لبداية الانطلاقة الحضارية المعتمدة على نمط حياة معيّة والاستقرار في الكهوف والملاجئ.

١ـ بعض من نتائج البحوث الأثرية في الصحراء الجزائرية

إن دراسة النقوش الصخرية وما تحويه من رسومات ورموز تُعَدّ مصدرًا هامًا جدًا في معرفة تاريخ البشرية وطرق معيشتهم وأنماط حياتهم ونشاطهم اليومي، خاصةً في فترات عصور ما قبل التاريخ، فهي توضّح لنا الكثير من حياتهم اليومية من خلال تلك النقوش أو الرسوم بألوانها الزاهية والواضحة والمعبّرة عن الواقع في ذلك الوقت. ويرجع الفضل إلى المجهودات التي قام بها العلماء الغربيّون في التعريف بالتّراث الحضاري العريق من خلال النقوش لأجل تحديد الإطار الزماني لأهم مراحلها وكتابات أبرز هؤلاء المعاصرين الذين دوّنوا مراحل الفن الصخري أو نقلها عن الباحثين السابقين.

إن اغلب الرسومات والنقوش الصخرية تعود لفترة العصر الحجري الحديث أو قبله بقليل اعتماد على الدراسات التي قام بها الباحثون أمثال بوني (١٨٨٨م)، وفلاماند (G.B.M Flamand) (١٨٩٢م) الذي اهتم بهذه النقوش في بداية عشرينيات القرن الماضي، وكانت دراساته محل بحث من قبل الباحث أ.ف غوتيه (E.F. Gautie) (١٩٢٨م)، وتلت أبحاث قوتييه في الأهمية أبحاث كل من هنري بروي (H. Breuill)، و(ل. بالوت ١٩٥٢م)، و(ك. موتزروج ١٩٥٨م)، و(ج. دوبياف ١٩٥٩م)، غير أن أول دراسة جادة تتعلق بالصحراء قبل التاريخ هي تلك التي نشرها القس ريتشارد

(Richard) سنة ١٨٦٨م والتي أجراها عن الصحراء الجزائرية، (اليونسكو ١٩٨٠: ٥٩٢) دون أن ننسى فضل هيجس. إ.س (Higgs E.S) الذي نشر نتائج أبحاثه سنة (١٩٧٦م) تحت اسم "أصول الاستقرار" (les origines de la domestication)، حيث أشار فيه إلى ظاهرة الاستقرار البشري في الصحراء بعد فترة زحف الجفاف على معظم أنحاء الصحراء الكبرى في نهاية العصر الحجري الحديث.

ويعتبر هنري لوط (H. Lhote) مكتشف مراحل الفن الصخري في الأطلس الصحراوي أن المعطيات" تدفع للاعتقاد أن الفن الطبيعي الكبير الذي ثبت قدمه على الإطلاق كان منشأه في الجنوب الوهراني، معتبرًا إياه أكبر المتاحف المفتوحة على الهواء في العالم". إضافة إلى أبحاث ودراسات كل من ب. قرازيوزي (P. Graziosi) وغابريل كامس (G. Camps) والفريد موزوليني (A. muzolini) الذي انطلقت أبحاثه منذ سبعينيات القرن الماضي إلى غاية منتصف تسعينياته. وعلى أثر ذلك أدرك الباحثون المختصون أهمية معالجة الأسباب الحركية والآثار المترتبة على التغيرات المناخية والعوامل الطبيعية التي ساهمت في اختفاء الكثير من النقوش الصخرية في كثير من المواقع الصحراوية.

٢ـ أهمية دراسة النقوش الصخرية

تعتبر الكتابات والنقوش القديمة من المصادر الرئيسة التي استقى منها المؤرخون والباحثون كل ما دوّن ويدوّن عن تاريخ الجزائر القديم، فهي التي يعتمد عليها بالدرجة الأولى لأنها تمثل وجهة نظر صانع الحدث ذاته، فهي تشكل صفحات تروي قصص وحكايات السكان القدامى الذين استوطنوا بالمنطقة منذ أمد بعيد، كما تعتبر منظومة اتصالية تضمن الترابط والتواصل بين الأجيال التي عمرت بهذا الموقع على مر الأزمان، وتبقى شاهدًا ماديًا على جذور المنطقة الضاربة في أعماق التاريخ.

تمتلك النقوش الصخرية في الصحراء الجزائرية أهمية خاصة، فهي تعكس وتوضح لنا طبيعة البيئة في شمال إفريقيا والصحراء خلال العصور الحجرية، حيث تمتع سكان الصحراء خلال العصور الحجرية بوفرة الأمطار وازدهار الحياة النباتية والحيوانية، مما مكّنهم من العيش لآلاف السنين في رغد، وحين حل الجفاف رحل الجميع وتركوا نقوشهم وفنونهم على الصخور كشاهد قوي وأكيد على الطبيعة الجغرافية للمنطقة خلال العصور الحجرية، ومن هنا تأتي أهمية النقوش الصخرية كمصدر تاريخي. (Tauveron et Vernet 1996:265-266)

تكتسب الكتابات والنقوش القديمة أهمية كبيرة من حيث أنها ثروة تاريخية مفيدة مهما كان موضوعها، وتعتبر مادة وثائقية مهمة بالنسبة للباحثين، فهي تسجل حياة أصحابها وطرق معيشتهم وعلاقاتهم بجيرانهم، وعلى الرغم من عدم خلو هذه الكتابات والنقوش القديمة من المبالغات والادعاءات والتخيلات أحيانًا والسذاجة والغموض أحيانًا أخرى، إلا أنها تعتبر المصدر الرئيس لتصوير عادات أصحابها وعقائدهم وأوضاعهم الاجتماعية، ولهذا يمكن اعتبار الفنون والنقوش الصخرية الوثيقة الأكثر وضوحًا التي قد تساعد على دراسة وفهم جوانب عدة من تلك الثقافات، وذلك لما تتميز به أغلب لوحات هذه الفترة من واقعية برأي الباحثين.

فإذا لم يمتلك السكان القدامى اللغة المكتوبة كانت الرسوم والنقوش هي البديل والتي مكنتهم إلى حد كبير تسجيل حياتهم مصورة على الصخر بدلاً من النصوص المكتوبة، وكانت المشكلة في فهم الجوانب المعنوية في الكثير من المناظر وبخاصة المرتبطة بالطقوس والعقائد، فالكثير منها قد يصعب تفسيره، ولهذا حاول بعض علماء الآثار الاستعانة بعلم الأنثربولوجيا كعلم مساعد في تفسير بعض المناظر المدونة على الصخر، ومع ذلك لم يتسنّ بعد تفسير الكثير من المناظر الصخرية التي مازالت مبهمة رغم محاولات العلماء تفسيرها.

بيد أن الدراسة من خلال صور صماء قد يكتنفها بعض المشاكل وذلك من حيث عدم الدّقة واختفاء التفاصيل الدقيقة في بعض الصور نتيجة الحالة السيئة لهذه المناظر، فالتصوير الفوتوغرافي على الرغم من التكنولوجيا الحديثة قد لا يوفّر صورة طبق الأصل تحاكي الموجود في الطبيعة، كذلك فإن نقل المشاهد يدويا لا تصل بالدقة المطلوبة.

٣ـ الإطار الزماني للنقوش والرسومات الصخرية في الصحراء الجزائرية

أصبحت الدراسات الحديثة المهتمة بفترة ما قبل التاريخ تتجه إلى اعتبار شمال إفريقيا إحدى أقدم المناطق التي عرفت بداية العصر الحجري الحديث مبكرًا، وذلك بعد ظهور دراسات جديدة متعددة التخصصات ساعدت على اكتشاف أن بداية هذا العصر بمنطقتنا تعود على الأقل إلى الألف الثامن قبل الميلاد، فقد مكنت دراسات النقوش والرسومات الصخرية من المساهمة في تجاوز المعطيات التي كانت سائدة من قبل والتي تعتبر شمال إفريقيا آخر المناطق التي عرفت هذه الثورة التقنية، ويبقى أي تأريخ يعتمد على هذه الوثائق نسبيًا في ظل الصعوبات التي يطرحها تأويل وتأريخ الفنون الصخرية رغم تطور التقنيات المستعملة في دراسته، ورغم أيضًا محاولات الباحثين المستمرة في الاستعانة بنتائج الدراسات متعددة التخصصات لمحاولة الوصول إلى تأويل وتأريخ مطلق (Vaufrey 1936: 624-638).

لقد حاولت الكثير من الدراسات الانطلاق من مواضيع هذه النقوش قصد رسم إطار تاريخي لثقافة العصر الحجري الحديث بالصحراء الجزائرية من خلال المقارنة مع الصحراء الكبرى، وقد تراوحت بين الألفية الثامنة والسابعة قبل الميلاد، إلا أن عدم استنادها على معطيات أثرية ملموسة (التحليل الكيميائي) للنقوش الصخرية بمواقع الاستقرار البشري القديم يجعل نتائجها مجرد فرضيات تنتظر التأكيد أو النفي. (Camps 1968: 609-622). إن صعوبة تأريخ هذه الفنون والنقوش الصخرية وصعوبة إيجاد تأويل موحّد لها يجعل الاستنتاجات حولها لا تخرج في كثير من الأحيان

عن إطار الفرضيات، فبالنسبة للتأريخ يصعب الحسم في العلاقة ما بين المواقع الأركيولوجية ولوحات الفن الصخري، والمناهج المعتمدة.

٤ـ طبيعة النقوش الصخرية في الصحراء الجزائرية

إن مشاهد الرسومات الصخرية تختلف من موقع إلى آخر بما تحتويه من عناصر، فقد يحتوي المشهد على عنصر واحد فقط أو قد يتضمّن مجموعة عناصر واحدة، وقد تشمل المجموعة مجموعة العناصر المتجاورة أو المتداخلة (superposition)، وكان من حسن الحظ أن تزيّن صخور الصحراء الجزائرية بآلاف المناظر التي تعكس الكثير من جوانب الحياة سكانها القدامى، ولهذا قيل عن هذه المناظر بأنها كتاب الصحراء المفتوح، فهو الكتاب الذي يظهر لنا ما لم تظهره المصادر الأخرى من حياة سكان الصحراء القدامى.

يمتزج تعقّد وتعدد الفن الصخري الصحراوي (L'art rupestre) بإمكانية ألا يكون ممثلاً لجنس فن صخري أوحد لمجتمع واحد، فهو يشير من خلال تعدد الأساليب وتنوع المحتوى إلى أنه وجد عدد من المجتمعات عاشت في أزمان مختلفة وفي أجزاء متعددة من الصحراء، والتي أنتجت أشكال فنها الخاص، بالتالي فإنّه لدى محاولة تفسير ما قد قيل في الفن الصخري الصحراوي يصبح الأمر صعبًا بفعل انعدام كرونولوجية للرسوم، وغموض هُويَّة الجماعات الثقافية المبدعة له، إننا محظوظون لوجود كتلوج متحف كولون الذي يعرض اللوحات الصحراوية "كوبر" (Kuper 1978) حيث تم فيه إعادة إنتاج الكثير منها بالحجم الطبيعي بما في ذلك اللوحات التي كشفت عنها بعثة هنري لوط في طاسيلي نآجر(Laude Jean1959: 640-661)، أيضًا مع هذه المجموعة الهامة توجد صور فوتوغرافية نفذها لايو (Lajoux 1963)، تم نشر العديد منها ومصادر أخرى منشورة تشمل لوحات لوط (Lhote 1959).

حاول الفنان القديم استخدام ما وفرته البيئة لتنفيذ هذه المناظر ونفذ مناظره على الصخر، سواء كانت صخورا لينة كالحجر الجيري أو لأحجار صلبة كالجرانيت، مستخدما في ذلك ما توافر لديه من أدوات النقش، وقد تنوعت الواجهات التي نفذت عليها المناظر، ففي محطات أو مناطق المناظر الصخرية نجدها تنفذ في العراء في الأماكن المسطحة من أرضية الصخر، أو تنفذ بشكل رأسي على كتل الخور المتوافرة بالمنطقة، أو يتم تنفيذها على جدران الملاجئ الصخرية، أو الكهوف التي تعد بمثابة تسجيلا لانطباعات السكان القدامى على الصخر.(Vervialle 1947: 235-252)

يدل تنوع طرق الصيد واختلاف وسائله التي نجدها مجسدة بكثرة في اللوحات على مستوى التفكير والتطور التقني الذي وصل إليه سكان المنطقة، كما تعكس مدى قدرتها على اختراع أكثر من طريقة لضمان أمنها الغذائي في محيط بيئي تحفّه العديد من الصعوبات والمخاطر الطبيعية، كما أن العديد من الرموز المصاحبة لهذه اللوحات القديمة والتي أولت على أن لها علاقة بمعتقدات منجزيها تبرهن هي الأخرى على وجود تصور معين للكون لدى هؤلاء.

إن تسجيل الفن الصخري لانطباعات السكان القدامى على الصخر لا يعني الاقتصار على التعبير عن مجال أو بعض المجالات المحددة من حياة الإنسان، بل إن الفن الصخري يتغلغل ويتطرق إلى مظاهر الحياة الإنسانية كافة، فهو يعكس البيئة والمعتقدات الدينية والشعائرية أو الحياة العائلية والمشاكل التي واجهت إنسان المنطقة.

٥ـ معايير تصنيف النقوش ومشاهد الرسومات الصخرية في الصحراء الجزائرية

إن النقوش الصخرية في الصحراء الجزائرية الواسعة تنفرد ببعض الخصائص الفنية ذات الأسلوب المتميز، حيث تقدم لنا هذه العناصر صورة صادقة عن أساليب الحياة المختلفة، فنتعرّف من خلالها على الكثير من العادات والتقاليد والأعراف ومختلف أنماط السلوك الاجتماعي للجماعات البشرية التي عاشت على تراب هذه المنطقة، فضلاً عن تصويرها لأساليب الحياة المعيشية والاقتصادية المختلفة، كما تكشف لنا هذه الرسوم والنقوش جانبًا مهمًا من النواحي العقدية والفكرية والأساليب الفنية والذّوقية للأقوام الذين خلّدوا لنا هذه الفنون الجميلة، وبصرف النظر عن الدوافع التي أدّت إلى إنتاج هذا الفن الصخري الرفيع في المنطقة، فإنّها تقدم لنا ثروة هائلة من المعلومات التي تنطوي علها أهمية تاريخية، ومثل هذه المعلومات الكثيرة ستساعد بلا شك على رسم التسلسل التاريخي للصحراء الجزائرية وغيرها من المناطق، بالإضافة إلى أنها ستعمل على توضيح البناء الحضاري الذي شهدته عبر عصورها التاريخية المختلفة (Cornevin1982:439-450)، وبالرغم من هذه الأهمية إلاّ أن دراسة فن الرسوم والنقوش الصخرية في الجزائر ما تزال في مراحلها الأولية.

تمتد هذه الرسوم عبر الزمن حسب عدة فترات أو عهود تعكس كل واحدة منها حياة حيوانية معينة تتميز بنمط مختلف وهذه الفترات هي:

١- **الفترة الطبيعية (Naturiste)**: وهي الأقدم وتعود إلى فترة العصر الحجري القديم، أي إلى عصر الصيادين، وقد جسّدت أصنافًا من الحيوانات مثل الفيلة وفرس النهر، ولذلك كانت موضوع عناية الفنان في عملية الصيد طاغية على معظم رسوماته.

٢- **الفترة المسماة بالقديمة أو العتيقة**: تعود إلى الألف الثامنة قبل الميلاد، والملاحظ أن معظم مشاهد الرسومات الصخرية مركبة من الألوان، والحيوانات المرسومة في هذه الفترة كثيرة جدًا وتتناسب مع مناخ رطب.

٣- **فترة رعاة البقر**: تمتد هذه الفترة من ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد إلى ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد، وهي الأهم من حيث عدد الرسوم المحفوظة التي تتميز برسوم للأشخاص وقطعان الأبقار ومشاهد من الحياة اليومية، وقد عرفت نقوشه بالتعدد والتحرر والانفتاح الفني، وبلغت مشاهد الرسومات الصخرية قمّة المهارة والتقنية والإبداع.

٤- **فترة الخيول**: تغطي الفترة نهاية العصر الحجري الحديث، وهي تصادف اندثار العديد من الأنواع الحيوانية بسبب الجفاف، كما تتميز بظهور الحصان (رسوم لخيول متوحشة وخيول مستأنسة موصولة بعربات). (بشي ٢٠٠٨م: ٣٨، ٣٩)

٥- **فترة الجمال**: بدأت في القرون الأولى من العهد الميلادي تتصادف مع ظهور الجمل. (بشي ٢٠٠٨م:٤٤)

وتميز هذا الدور بكثرة النقوش والرسوم الصخرية بتقنيات مختلفة، منها الحزّ على الصخر والتنقيط، أي الرسم عن طريق إحداث النقط المتتابعة التي تظهر الأجسام المراد إبرازها في رسوم هذا العصر. وهذا يعني أن دراسة الرسوم الصخرية يمكن أن تؤدي إلى الربط بين سلسلة التتابع التاريخي للحضارات التي قامت على أرض هذا الإقليم بشكل خاص والصحراء الكبرى على وجه العموم.

أمّا أبرز أنواع هذا الفن الصخري فهي على النحو الآتي:

١/٥- الرسوم الآدمية:

وجد عدد من الرسوم الآدمية في مواقع الرسوم الصخرية خصوصًا في منطقتي الطاسيلي والهقار والتي تعود لحقبة ما قبل التاريخ، وتختلف الرسوم الآدمية من حيث الشكل وأسلوب التنفيذ من حقبة لأخرى، وتتكون الأشكال الآدمية في هذه المنطقة من أربع فئات، وهي:

١- **الأشكال الآدمية ذوات الرؤوس المستديرة:** من أقدم الأشكال المجسدة تعود إلى الألف الثامنة قبل الميلاد وهي منتشرة بكثرة في منطقة الطاسيلي، وبعض هذه الأشكال عودية الأسلوب والرؤوس دائرية الشكل.

٢- **الأشكال الآدمية ذوات الرؤوس المقنعة:** إن الرسوم والأشكال الآدمية ذوات الرؤوس المقنعة شائعة في الصحراء الجزائرية خصوصا بمنطقة الطاسيلي، وقد أظهرت بعض المشاهد صيادين يضعون أقنعة من رؤوس الغزلان فوق رؤوسهم وربما الهدف من ذلك التمويه حتى يتقربوا بها من الفريسة المراد صيدها، وقد رأى البعض أن هذه الأقنعة هي الأقنعة التي يتنكر فيها الصيادون، أو أن هذه الأشكال قد تكون لراقصين مقنعين، على أن هناك من يعتقد أن المقنعين الراقصين قد عثر عليهم في مختلف مناطق العالم، وأن هؤلاء المقنعين يمثلون صيادين يقومون بوضع هذه الأقنعة شَرَكًا يخدعون به الحيوانات التي كانوا يقومون باصطيادها، ويرى هؤلاء أن هذه الأقنعة أو أن التنكر بحد ذاته يمثل قوة سحرية روحية (Lhote 1966: 34-40)، ولهذا نجد أن الإنسان استخدم القناع أو التنكر ليس في مجال الصيد فحسب، بل حتى في الطقوس الدينية اعتقادًا منه أن التنكر يزيدهم قوة، وإن كان هناك مَنْ يعارض هذه الفرضيات التي تقول إن الأشكال الآدمية المقنعة تمثل صيادين أو سحرة مقنعين.

٣- **الأشكال الآدمية الواقعية:** تكثر الرسوم البشرية في منطقة الطاسيلي، وتزيد بعض هذه الرسوم حجمها عن حجم الإنسان الطبيعي وهي عادات تقضي باستخدام وجه مغاير لوجوههم (visage (fausse، وربما يكون الهدف من ارتداء القناع هو الحصول بشكل مؤقت على صفات الكائن الذي يمثله القناع (Le Quellec 1998: 269)، فقد كانت الأقنعة في حد ذاتها عبارة عن فتيشات.*

٤- **الأشكال الآدمية التخطيطية التجريدية:** إن تميز هذه الأشكال الآدمية التجريدية أو الشديدة التخطيط غالبًا ما تكون عملية معقدة، ويمكن تمييزها عن طريق مقارنتها بالرسومات التي تكون مقترنة بها، ولهذا نجد أن الشكل الإطاري وقسمات الوجه والسّمات الجنسية لهذه الأشكال مرسومة بأسلوب تجريدي أو مختزلة أو مكبرة أو ناقصة أو معدلة إلى أبعد حد، مع محافظتها على أوجه الشّبه، إما في شكل الجسم أو الجذع والرأس مع الأشكال الآدمية، الأمر الذي يجعلنا نميزها رسومًا آدمية.

٢/٥- الرسوم الحيوانية:

تمثل أشكال الحيوانات الغالبية العظمى من الرسوم الصخرية الرّمزية التي عُثر عليها في العديد من المناطق وأبدعها المنتشرة خصوصًا في منطقتي الطاسيلي والهقار(Chudea 1907:138-146)، حيث نجد في كثير من مواقع النقوش والرسوم الصخرية أن رسوم الحيوانات تفوق ما عداها من الرسومات وخاصة الرسومات البشرية، ويتضح من هذا أن الحيوان كان يشكل اهتمامًا خاصًا لدى فناني عصور ما قبل التاريخ، ولم تكن الرسوم الحيوانية في كثير من الحالات مقرونة بالأشكال الآدمية، ومن أبرز الحيوانات التي وجدت في المنطقة ما يأتي:

- **الأبقار** وهي ذات قرون مختلفة، فأبقار لها قرون متوازية، وأخرى ذات قرون على الأمام، (Huard 1968:114-120) وعن هذه الأخيرة يشير هيرودوت إلى أن الجرامنت** (Gramantes) لهم أبقار ذات قرون متّجهة إلى الأسفل، بحيث تغرس في الأرض كلما حاولت السير إلى الأمام، لذلك فهي ترجع إلى الوراء في رعيها!
- **الفيل:** عُثر على رسومات له في وادي جرات بالطاسيلي طوله ستة أمتار، وفيلا آخر في منطقة تيسالاتين (Tissalatine)، وفيلة بيضاء اللّون قد تكون من الحيوانات الأسطورية.
- **وحيد القرن:** هناك (٨٦) رسمًا لوحيد القرن في منطقة تيسالاتين (Tissalatine) بوادي جرات (Le Quellec 1998: 130)، أما بقاياه الأثرية فهي قليلة.

* - الفتيشة: هي تقديس الأشياء المسحورة والتمائم والخرز والتصور، إن قوى الكون تجتمع فيه لذلك اتخذت الآلهة صفة هذه الاشياء المقدسة. ومن الأمثلة عن الفتيشات نذكر الأقنعة والتيجان والرموز المختلفة، انظر: خزعل الماجدي، **أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ**، دار الشروق، الأردن، ١٩٩٧، ص ١٧٤.

** - كانوا متمركزين في المنطقة الممتدة بين جل نفوسة وجهات الفزان الحالية إلى الطاسيلي، ويبدو أنهم أحفاد الشعب المحارب الذي استعمل العربات في تنقلاته وحروبه، أنظر:

Herodote, Histoire, texte trad. par: E. Legrand, ed- les belles lettres, Paris, 1948, tome, IV, 183.

- **فرس النهر:** فقد جُسّد في رسومات بمنطقة تين تزاريفت، وعثر على بقايا له في عرق أدمير (Admer) وعين قزام (In Guzzam) وإن زوا (In Azoua) وواد جرات بمنطقة الطاسيلي. (Le Quellec 1998: 133)
- **النعامة:** مشاهد عديد للنعامة في العديد من مناطق الصحراوية، ومن المشاهد الغريبة التي جُسّدت بها نجد صورة جسم نعامة ولكن برأس زرافة وكذلك صورة نعامة بأربعة أرجل، وصورة أخرى لنعامة بقرون كبيرة.
- **التماسيح:** مجسدة في كهوف إن إتينان (In Itinan) وواد جرات، وبقاياه التي عثر عليها في منطقة وان راشلة (Wan Rachla) جنوب الطاسيلي (Le Quellec 1998: 144).
- **الاسماك:** مجسدة بكثرة في منطقة الطاسيلي مثلما هي مبينة في مشهد السباحين في تين تزاريفت ومنطقة صفار(Safar) .
- **حيوانات أخرى:** إضافة إلى هذه الحيوانات المذكورة فقد جسدت حيوانات أخرى منها: الجاموس، الغزال، الأسد، الفهد، الحمار الوحشي، والأروي (mouflon) والزرافة المجسدة في منطقة تجبرت والقردة التي جسدت في كهوف تين تزاريفت (Tin Tzarift) بالطاسيلي (Lajoux 1977: 134,135)

٣/٥- الأسلحة:

أما عن رسم الأسلحة فهي موجودة في أغلب المواقع المشار إليها في هذه الدراسة، ومن هذه الأسلحة ما يأتي:

- **الأقواس والسهام:** وتعد من أقدم الأسلحة استعمالاً، ومن أكثرها شيوعًا، وقد وجدت أيضًا في العديد من اللوحات التي عُثر عليها في منطقة الطاسيلي، وقد ظهرت مقرونة بالأشكال الآدمية، حيث يشاهد الرجل عادة وهو يمسك القوس والسهم في حالة وقوف بلا حراك، وفي بعض الرسومات نرى الرجل وهو يصوب سهامه باتجاه الهدف المراد والذي غالبًا ما يكون حيوان الوعل أو الغزال أو الجاموس، وفي عديد مناطق من الطاسيلي جسدت معارك بين رماة السهام مثلما هو مبين في موقع تين تزاريفت (tin tazarift) وإيدو تيسوكاي (iddo tissoukai) وفي تين أبنهار(tin abenher).(Lhote 1958:112)
- **الرماح العصي والخناجر:** وتظهر بشكل مكثف في الرسوم الصخرية خاصة بمنطقة الطاسيلي والهقار وفي نفس المناطق المذكورة ايدو تيسوكاي وتين أبنهار وتين تزاريفت.

٤/٥- الوسوم والعلامات والرموز:

عادةً ما تربط الوسوم والعلامات في الفن الصخري بأشكال الإنسان والحيوان، وتتخذ هذه العلامات أشكالاً مختلفة بحسب المنطقة التي توجد فيها، وقد توجد العلامة نفسها في أكثر من موقع ولا يعرف الغرض منها، ومن العلامات المهمة تلك الزوائد المجسدة بين قرون الحيوانات في مشاهد الأطلس الصحراوي ممثلة أساسًا في قرص الشمس، ومن الأمثلة عنها كبش قرص الشمس في حجرة سيدي بوبكر (hadjra sidi boubaker) الواقعة جنوب الجلفة، (Lhote 1984: 293).

ظهرت الرمزية منذ القدم أين قام الإنسان الأول بالتعبير عن آرائه برموز معينة، فالرمز علامة عن شيء ما، وجوهره غير واضح بالنسبة لغيره، فهو قد يحمل معاني وتفسيرات مختلفة تبعًا لنظرة الباحثين وقراءاتهم للرموز، (Gourhan 1964: 148) ففي المشاهد الصخرية الصحراوية نجد رموزًا تعبر عن مظاهر دينية وأساطير، وبعض من هذه الرموز يمكن تفسيرها بسهولة لوضوحها، بينما رموزًا أخرى تبقى غامضة لعدم معرفة الباحثين بمعتقدات ونمط تفكير الإنسان في تلك الفترة، ولم تكن رسوماته عملاً تلقائيًا بل كانت تتم وفق طقوس معينة نابعة عن معتقداته الروحانية، ومن بين الرموز والصور ذات الدلالات نجد:

- **استعمال الألوان:** فاللون الأحمر مثلاً كان يرمز إلى استمرارية الحياة، وهذا ما نلاحظه في العديد من رسوم الحيوانات مثل الظباء العملاقة والأروية والزرافات. (Hachid 1998: 148) واستعمل كذلك اللون الأبيض بارتباطه بالشخصيات الأسطورية والآلهة والأرواح مثل مشاهد الشخصيات السابحة في أونرحات، ومشاهد أخرى لحيوانات وكائنات أسطورية باللون الأبيض في صفار.(Hachid 1998: 218) إضافة إلى اللون الأصفر الذي له علاقة بطقوس الدفن كما هو واضح في موقع تين هناكتن.
- **استعمال الأقنعة:** فالعديد من الرسوم الصخرية تعبر عن الرأس المقنع، فهناك أقنعة برؤوس الحيوانات (Théranthropes) بحيث يعطي للشخص لنفسه مظهر يشبه الحيوان أو الكائن الأسطوري. (Hachid 1998: 200) وربما يمكن أن يعطي انطباعًا مغايرًا مثل حماية المقنع من القوى أو الأرواح الشريرة أثناء الطقوس أو الحصول بشكل مؤقت على صفات الكائن الذي يمثله القناع. (Le Quellec 1998: 269).

ويلحظ على رسوم الصحراء هذه أنها تختلف من حيث طبقة التقادم وهذا، يعني أنها تعود في تاريخها لعصور مختلفة، كما اختلفت مهارة التنفيذ ودقته من لوحة لأخرى بل ومن موقع لآخر، ومع ذلك لم تتغير الأغراض كثيرًا، أما عن أبرز ما تحويه الرسوم فيمكن أن نجملها في النقاط الآتية:

(١) هناك مجموعة من الرسوم الصخرية غير مميزة؛ أي عديمة الهوية والجنسية، في حين أن بعضها تفرق بين الذكور والإناث من خلال إبرازها لعضو الذكورة بالنسبة للرجال، أو تجسيد المؤخرة البارزة أو الشعر الطويل في رسوم النساء. وتتميز بعض الرسوم الآدمية بالمهارة العالية والإبداع الفني، حيث ظهرت بملامح تجسيدية أكثر واقعية باستثناء ملامح الوجه الطبيعية،

وفي هذا دلالة على تطور جوهر وأسلوب تنفيذ تلك الرسوم من عصر لآخر.

(٢) يلحظ أن الرسوم الحيوانية الصحراوية خصوصا في منطقتي الطاسيلي والهقار قد جاءت في معظمها بأشكال غير متحركة، إذ إننا نجد ندرة في الملامح والصفات الحركية في هذه الرسومات، وهذا لا يعني أن الفنان هنا لم يكن قادرًا على التعبير عن الحركة في مصوراته، بل من المحتمل أن عنصر الحركة في رسوماته كان شيئًا ثانويًا، ولم يكن الفنان يلقي له بالاً أو يهتم به كثيرًا، بدليل أنه عبر في بعض الحالات عن الصفات الحركية والتفاعل الحركي في بعض الرسومات المختارة وخاصة في الرسوم شبه الواقعية، أضف إلى ذلك أن الفنان قد تمرس في تمثيل الحركة في رسوماته في معظم مناطق الصحراء الأخرى، مثل موقع تيسوكاي، في طاسيلي نآجر الذي يجسد منظر معسكر مع نساء وأبقار وغيرها.

(٣) أظهرت لنا مناظر الصيد أسلوب الإنسان في بحثه عن غذائه، كما بينت أنواع الحيوانات التي كان يطاردها لتوفير طعامه، وقد كانت حيوانات الوعول والغزلان والنعام في مقدمة الحيوانات التي كان يفضلها الصيادون. وفي هذا إشارة إلى أنها كانت تمثل جزءًا مهمًا من غذائه الرئيس، وأوضحت الدراسة كذلك بعضًا من الحيوانات التي كانت تشكل خطرًا على حياة الإنسان، وتمثل هاجسًا له.

(٤) لم توضح لنا الدراسة نوع الملابس التي كانت ترتديها شعوب المنطقة، باستثناء ظهور بعض الأقنعة الواقية للرأس التي رأينا الفرسان ذوي الأحجام الطبيعية يرتدونها، بالإضافة إلى ظهور أشكال بأحزمة ومشدات للصدر، وما يشبه البلوزات والتنورات؛ مما يدل على أن إنسان تلك العصور قد صنع ونسج من الملبوسات ما كان يستر به عورته كما هي مجسدة في العديد من المواقع من بينها موقع لبيوض واد سيدي الشيخ وبوسمغون وادي الرمل بجبال لقصور (الأطلس الصحراوي) (Capdérou et Soleihavoup 1997: 609-618).

(٥) توجد أعداد كبيرة من الرسوم ذات الأذرع المرفوعة لأعلى أو الممتدة مع ثني الجسم كما لو كان الشكل في حالة توسل، وقد توحي لنا مثل هذه المناظر عن ممارسة بعض الشعائر والطقوس الدينية كما ظهرت لنا أشكال مقنعة قد يكون لها علاقة ببعض العقائد والممارسات الدينية، أو أنها تدل على ممارسة بعض أعمال السحر والشعوذة.

(٦) أثبتت الدراسة كذلك أن هناك العديد من المحتويات الفنية المتماثلة في جميع الأشكال الآدمية والحيوانية، وهذا التشابه يجعلنا نعتقد أن الشعوب التي تعاقبت على سكنى المنطقة كانوا متقاربين في أفكارهم وسلوكهم الاجتماعي، ولم يخرج الفنانون على ما يبدو عن تقاليد من سبقهم بالرغم من البعد الزمني ولا شك في ذلك، فمن الواضح أن الفن الصخري بدأ مع النشاط الإنساني وتناول تفاعله مع البيئة الطبيعية التي عاشها، ومع الجماعات البشرية التي اختلط بها، ولهذا فإنه يتناول ما خلفه هذا التفاعل من شواهد توضح تطوره عبر العصور.

٦ـ جوانب من التطورات الحضارية التي عرفها إنسان الصحراء في العصور القديمة

إن البنية الحضارية لا تكتمل إلاّ إذا كان ذلك المجهود المبذول مكتملاً، للوصول إلى تلك الثمرة الحضارية التي ترك إنسان الصحراء لنا بصماتها في شكل مشاهد مختلفة مجسدة في رسوم عديدة، نستخلص من خلالها صفحات طويلة من ذلك التاريخ، لقد أماطت لوحات الفن الصخري اللثام عن صحراء خضراء وفيرة المياه كانت مرتعًا لحيوانات استوائية من قبل الفيل فرس النهر والزرافة وغيرها، كما كانت عبارة عن مرعى كبير لقطعان البقريات المتوحشة وقد أشار هنري لوط في هذا السياق قائلاً: "لقد كان الفن الصخري في الصحراء سجلاً حافلاً بالنقوش والرسوم المختلفة التي دوّن فيها سكانها القدامى مشاهد حياتهم اليومية وعبرت عن محيطهم الواقعي، فإذا كانت الوديان التي نراها قاحلة صخرية اليوم فقد كانت في الماضي مليئة بالمياه، وفي الوقت الذي تتسم الجبال الطاسيلية بكونها جرداء داكنة اليوم فقد بيّنت الرسوم التي كانت تكسوها الأعشاب والغابات الكثيفة، وكانت الجهات الخالية الموحشة الآن مرتعًا خصبًا للفيلة وفرس البحر والزرافات، في هذه الفترة سطر صيادو طاسيلي ناجر نشاطهم اليومي وعمليات الصيد والقنص بكل أمانة.

لقد كان يقابل سيادة الحيوانات الكبرى المتوحشة مجال خصب وفير المياه وفر للإنسان المحلي من الطرائد ما لم يكن معه في حاجة إلى التفكير كثيرًا في مصدر عيشه، ثم طرأت تغيرات جذرية على هذا المجال الذي بدأ يتحول نحو الجفاف، لقد عكس الفن الصخري ذلك من خلال تركيزه على رسم ونقش الحيوانات التي تأقلمت مع البيئة الجديدة وتراجعه عن نقش ورسم الحيوانات الكبرى الاستوائية، فقد بدأت مقابل ذلك تظهر قطعان الأبقار ومن ثَمَّ حدثت أولى محاولات التّدجين وامتلاك القطعان، وكان للتغيرات المناخية على ما يبدو الدور الحاسم في التحول التقني والحضاري لإنسان المنطقة دفعت به إلى التنقل جهة الشمال.(Aumassip 1988: 139)

وبالنسبة لتأويل الفن الصخري، فان الباحثين اعتبروه يلخص الحياة اليومية لإنسان المنطقة خلال عصور ما قبل التاريخ، أي طرق القنص وأنواع الطرائد والوسائل المستعملة لذلك من شراك وأسلحة، ثم الاعتقادات وبعض الحيوانات التي استهدفها الإنسان بالعبادة وعلاقة هذه الكائنات بالخصوبة وغير ذلك من المظاهر التي شكلت هاجسا دائمًا للإنسان القديم، وقد تكون الظاهرة بعيدة عن فكرة الفن من أجل الفن وإنما تميزت بخصائص فريدة قد يستشف منها المرء مظاهر حضارية مركبة ومتطورة روحيًا وبصفة

خاصة تلك الأعمال التي تبتدئ من العصور السحيقة إلى غاية الدور الرعوي وتنم عن عالم مجهول لكنه غير مشتبه فيه بالرغم من أن معظم الرسوم القديمة، إلا أنها لا تخلو من ظاهرة الشعور السحري والشعوذة والدين وتجلت فيه مظاهر الرقة والشعور الغني الذي سيطر على تنفيذ العمل. (ديورنت ١٩٦٥:١٦٦)

لقد انتبه العديد من الباحثين وجلهم أجانب السباقين لاكتشاف ودراسة النقوش والفنون الصخرية في الجزائر وصحرائها إلى أهمية هذا النقوش لكتابة تاريخ المنطقة وحضارتها التي نلمس تجلياتها في اللوحات الصخرية المنقوشة بالمواقع، مما يستدعي علينا دراستها باعتبارها حلقة وصل بين عصور ما قبل التاريخ والفترة التاريخية، ففهم الكثير من جوانب هذه الأخيرة يقتضي عدم إغفالنا لمعطيات حضارة ما قبل التاريخ، لأن الفترتين متتاليتين ولا يمكن إحداث قطيعة حضارية تامة بينهما.

لقد كانت علاقات الإنسان بعالم الحيوانات في تلك العصور الغابرة والتي تأرجحت بين الصراع والمنفعة والتقديس إحدى المحركات الأساسية لعملية البناء الحضاري لدى الإنسان القديم ومن ثَمَّ فلا غرابة إذا وجدنا أن عالم الحيوانات هو الطاغي في أقدم النقوش الصخرية في الصحراء الجزائرية شأنها في ذلك شأن باقي الفن الصخري في الصحراء الكبرى.

خاتمة

دلت الأبحاث الأثرية ولا تزال على أن الشمال الإفريقي من أقدم المناطق التي استقر فيها الإنسان ومارس مختلف الأنشطة التي تلبي حاجياته وفي احتكاكه الطويل ببيئته، ونحن لازلنا بعيدين عن إدراك ضغط البيئة الحاسم كقوة مؤثرة في التطور الإنساني ومن الواضح أن كل ذلك قد حصل بفعل قدرات فكرية استثنائية تمامًا، حيث تعتبر نقوشه التي خلفها خطوة هامة في تطور قدراته التعبيرية سرعان ما وصلت إلى التعبير بالرموز والكتابة قبل العصر التاريخي، فهو يعتبر دليل عميق على أنها شهدت حضارة فكرية وعقلية في فترة ما قبل التاريخ، وهي على أية حال مصدر رئيس للتعرف على الفكر الإنساني وقتذاك.

إن النقوش الصخرية جسدت لنا تاريخ الصحراء الإنساني من خلال الأشكال والرسوم التي دونها سكان الصحراء القدامى عن حياتهم اليومية، فلوحاتهم ونقوشهم في أغلبها واقعية منسجمة مع تاريخ حياتهم، وقد كشفت الدراسة أهمية هذه النقوش في التأريخ، وذلك على النحو الآتي:

(١) كشفت عددًا من الأساليب الفنية في النقوش الصخرية، وهذا يعني أن هذا الفن قد مر بمراحل عدة كان يتطور فيها من مرحلة لأخرى.

(٢) أظهرت براعة الفنان في تصوير الأشكال بأحجام طبيعية، كما وظف مهارته بدرجة كبيرة نحو إظهار التفاصيل الجسدية الدقيقة لرسوماته.

(٣) كشفت النقوش الصخرية عن الذوق الفني لأصحابها، وعن المواضيع التي كانت تشغلهم.

(٤) أعطت تصورًا عن بعض أنماط الحياة المتنوعة، وبعض الأعراف والتقاليد الاجتماعية، فضلاً عن أنها تساعدنا في استيحاء بعض الأفكار والثقافات التي انتشرت في المنطقة عبر مختلف العصور.

(٥) قدمت تصورًا عن بعض المعبودات الدينية التي ربما سادت عبادتها في المنطقة، كما يمكن أن نستوحي ذلك عن طريقها بعض الطقوس الدينية.

بيبليوغرافيا

المراجع العربية:

- اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام، **المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا في كتاب تاريخ إفريقيا العام**، إعداد اليونسكو ١٩٨٠.
- بشي (محمد العيد)، تاسيلي ناجر، **الأزمنة الجيولوجية والمؤشرات الحضارية والعوامل الطبيعية المكونة للمنطقة**، ج٢ ، دار الحبر، الجزائر، ٢٠٠٨.
- خزعل الماجدي، **أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ**، دار الشروق، الأردن،١٩٩٧.
- ول ديورنت، **قصة الحضارة**، مجلد ٦، تر: زكي نجيب محمود، ط٣، ١٩٦٥.

المصادر والمراجع الأجنبية:

- Aumassip (G), l'élevage au Sahara, Milieux, Hommes et techniques du sahara préhistorique, problèmes actuels. Paris 1988.
- Gourhan (A.L), Les religions de la Préhistoire (Paléolithique), presses universitaire de France, 1964.
- Hachid (M), Tassili N-Ajjer au source de l'histoire il' ya 50 siècle avant les Pyramids, ed- Mediterranean, Paris, 1998.
- Herodote, Histoire, texte trad. par: E. Legrand, ed- les belles lettres, Paris, 1948.
- Lajoux (J. D), Tassili N-Ajjer, art rupestre du sahara préhistorique, Paris, ed- du Chène, 2°ed,1977.
- Le Quellec (J.L),Symbolisme et art rupestre du Sahara, ed- Harmattan, France,1998.
- Lhote (H), Les gravures rupestres de l'Atlas saharien, monts des Ouled Nail et region de Djelfa, Algerie, office du parc national du Tassili,1984.
- Lhote (H), A la découverte des fresques de Tassili, ed- Arthaud. Paris,1958.

الدراسات والأبحاث:

- Camps (G), Tableau chronologique de la Préhistoire récente du nord de l'Afrique, bulletin de la société préhistorique française. 1968, tome 65.
- Capdérou (M) et Soleihavoup (Fr), Deux station rupestres de l'Atlas saharien: lahsi et oued dermel. Une association originale de l'homme et du bélier, bulletin de la société préhistorique française. 1997, tome 94.
- Cornevin (M), Les Néolithiques du Sahara central et l'histoire générale de l'Afrique, bulletin de la société préhistorique française. 1982, tome 79.
- Chudea (R), Quelques renseignement ethnographiques sur le Sahara et le Soudan, Bulletins et mémoires de la société d'anthropologie de Paris, V° série, tome 8, 1907.
- Huard (P), Nouvelles figuration sahariennes et nilo-soudanaises de bœufs porteurs, montés et attelés, bulletin de la société préhistorique française. 1968.
- Laude (J), En Afrique noire: arts plastique et histoire, Annales. Economies, sociétés, Civilisation. 14e année, N.4, 1959.
- Lieutenant Vervialle (M), Les gravures et peintures rupestres du pays Ajjer, bulletin de la société préhistorique française. 1947, tome 44.
- Lhote (H), Les peintures pariétales de l'Ennedi relevées par Gérard Bailloud dans le cadre du Sahara, bulletin de la société préhistorique française. 1966, tome 63.
- Tauveron (M) et Vernet (R), Climats anciens du nord de l'Afrique, bulletin de la société préhistorique française. 1996, tome 93.
- Vaufrey (R), L'Age des spirales de l'art rupestre nord-africain, bulletin de la société préhistorique française. 1936, tome 33.